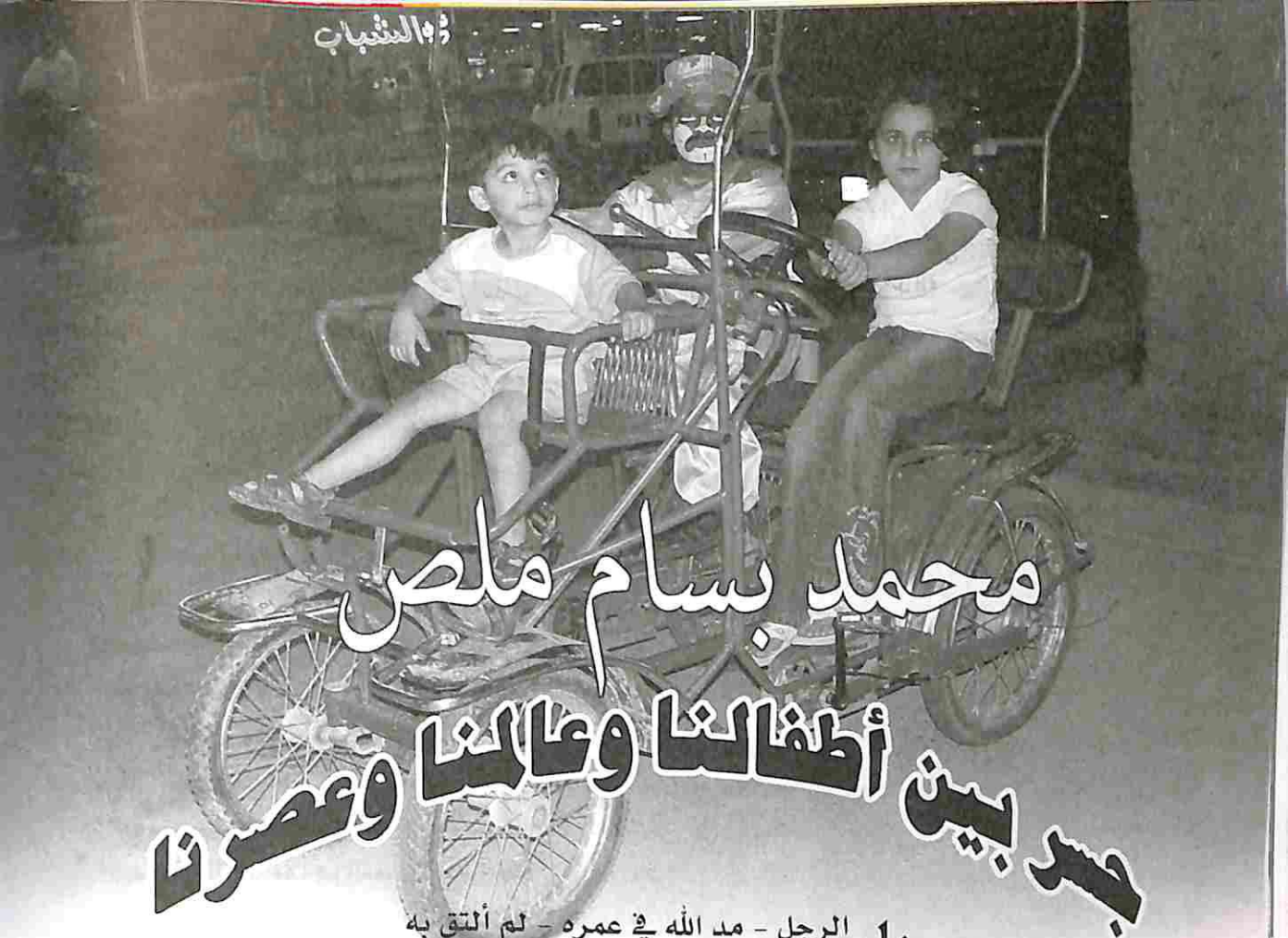

محمد بسام ملص
جد بين أطفالنا وعالمنا وعصرنا

هذا الرجل - مد الله في عمره - لم ألتق به من قبل.. وأحببت كثيرا ما يفعله وما يقوم به بالنسبة لأطفالنا، فهو يكتب لهم، ويؤلف، ويقدم لنا تجارب عالمية رائدة في مجالات آدابهم، وفنونهم، فضلاً عن أنه يخرج لهم مسرحيات، ويصدر كتبا، فيها جهد طيب، ومحاولات لا تنقطع حتى يضع أقدام أطفالنا على القرن الجديد.. وهو يقوم بذلك في تواضع جم، ودون إعلام أو إعلان عن أعماله، ويتركها تتحدث عن نفسها، وتفرض وجودها على الساحة، وبين المتخصصين الذين يسعون إليها طواعية، وعن رغبة حقيقية في معرفة الجديد والمزيد في ميدان الطفولة وثقافتها.

بقلم: عبدالتواب يوسف
مصر

وقد رغبت يوما ما في أن أمد جسور الصلة فيما بيني وبينه، فكتبت إليه رسالة قبل سنوات طويلة، ولم أتلق منه ردا، ولست أدري لذلك سبباً، وربما لم تصله، أو لم يجد فيها ما يستحق الجواب أو الرد عليها، وفسر لي حامل الخطاب الأمر بأنه رجل على درجة كبيرة من الحياء والتواضع، والرغبة في العزلة.. ومن حقه هذا. إنه الأستاذ الكبير: محمد بسام ملص.. له عظيم الاحترام.

وقد توقفت عند اسم «ملص» ولم أكتف بالمعنى العام للكلمة. ورأيت أن أرجع للمعجم بحثاً. فقد يكون لها معنى آخر، وإذا به فعلاً ما نفهمه منه، وإن كنا نستخدم عبارة «تملُّص» أي «تخلص» أكثر مما نستعمل الكلمة ذاتها.. والحق أن الرجل ما «ملص» منه شيء في أمور ثقافة الأطفال، بل تحمل المسؤولية في شجاعة واقتدار، وأخذ على عاتقه أن يقوم بدوره ويؤدي واجبه في إخلاص ودأب.. الأمر الذي يدفعنا إلى البحث عن أعماله وكتاباته، لنقف عندها، نتدارسها حفاوة بها واهتماماً، إذ هي جديرة بذلك.. وتستحق أن تسلط عليها الأضواء، خاصة ونحن نعيش عصراً وأياماً ابتلينا خلاله ومعها، بآفة شديدة الخطورة يسميها الكثيرون: «نفي الآخر».. بل، نحن أحياناً نقوم بنفي أنفسنا، اختياراً، كثمرة طبيعية لما يجري معنا من ظلم، وقمع، وإهمال قد يصل إلى حد الاحتقار.. وإذا كنا نفعل هذا مع أنفسنا، فليس غريباً قط أن نفعله مع الآخرين في هذا الزمن..

وقد اخترنا بعضاً من كتبه لنعرض لها..

- كتب الأطفال المصورة (عمان/ الأردن).
- النشاط التمثيلي للطفل (بغداد/ العراق).
- النهضة الأوربية في أدب الأطفال (الرياض/ السعودية).

ولا يفوتنا أن نذكر أن الكاتب سوري الأصل.

❖ كتب الأطفال المصورة:

هذا كتاب صدر في الأردن، لو أن

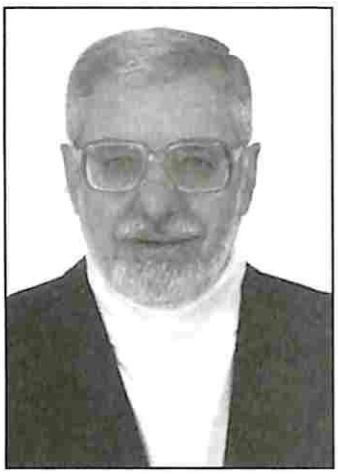

محمد بسام ملص

لدينا من يهتم حقيقة بكتب الأطفال وأدبهم وثقافتهم، لأقام الحفلات على شرفه وابتهاجاً بصدوره، لكن لأن هذا الاهتمام صوري، ومظهري فقد ظهر الكتاب قبل أعوام، وما لقي ماهو جدير به. الكتاب عنوانه: كتب الأطفال المصورة، وهي ترجمة لعبارة Pichure Books وهي لا تعني كتباً تحوي صوراً فوتوغرافية كما يتبادر إلى الأذهان، كما أنها تختلف جذرياً عن الكتب المرسومة.. إنها لون من كتب ذات طبيعة بالغة الخصوصية. هذه الدراسة كتبها «محمد بسام ملص» ومن منشورات وزارة الثقافة الأردنية، وصدر عام ٨٩، في كانون الأول/ ديسمبر، في المقدمة يقول المؤلف: الكتاب الجيد يخلق قارئاً جيداً..

والكتب المصورة لأطفال ما بعد المرحلة المبكرة، وهي تلي مرحلة ما قبل المدرسة.. وهي تساهم في إغناء القيم الجمالية على اعتبار أن الرسومات تشكل أساساً من مقوماتها بالنسبة للنص، والتصميم ، ونوع الورق، وحجم الحرف. وفي التمهيد يقول المؤلف: إن الكتاب استغرق منه أكثر من عام - مع أنه لا يتجاوز ثمانين صفحة - وإن جهده انصرف إلى اختيار المتميز منها. لقد اختار منها سبعة كتب بالفرنسية، وأربعة كتب بالإنجليزية، وكتاباً بالألمانية، وكلها متوافرة لدى الكاتب.. وكان لتفاعله معها الدور الكبير في عرضها وتقديمها ودراستها. هي إذاً مختارات، لكن صاحب الدراسة لم يغفل عن التجربة العربية، فقدم ثبتا بعدد من الكتب يراها تدخل في نطاق الكتب المصورة، ونحن لا نجامله، خاصة وقد فاتته التجربة المصرية العريقة في الكتب المصورة، وأغفل روادها، ومن الواضح أن أعمال «بيكار» وسلسلة صندوق الدنيا لم تصل إلى يديه، إذ لا جسور تربط بين الإنتاج العربي من شتى أقطاره.. كل في جزيرة منعزلة.

لقد ركز صاحب كتاب «كتب الأطفال المصورة» على تحليل عدد من الكتب، لكن ذلك لم ييسر له تقديم تعريف كامل بهذا اللون المتميز، إذ يصعب على كثيرين أن يفرقوا ما بينها وما بين الكتب المرسومة للأعمار الصغيرة، للتشابه الشديد بينها.. والكتب الدراسية الصادرة عن الكتب المصورة تضاهي - في أوروبا وأمريكا - ما صدر عن أدب الأطفال نفسه، إذ إنها أصبحت تغمر الأسواق، ورفوف المكتبات تحمل آلافاً منها، منذ بداية صدورها على يد (واندا جاج) وبالذات قصة (ملايين القطط)، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة العربية،

التي هي استهلال لدراسات بعدها، توضح أمور الكتب المصورة، وتكشف عن هويتها المتمثلة في التداخل العضوي بين النص والرسم.. إذ لا غنى لأحدهما عن الآخر في الكتب المصورة.. إن الكاتب يرى أن هذه الكتب توازن بين الكلمة والصورة بطرق مبدعة ذكية.. إن الكتاب المصور هو في كثافة الشعر.. خاصة وكلمات القصة المصورة يجب أن لا تتجاوز ألفي كلمة، وتخفف الرسوم من هذا التكثيف، وتيسر الفهم والتوضيح اللازمين.. الكاتب والرسام في الكتب المصورة ينظران للأشياء على مستوى الطفولة، ولابد لهما من رؤية صافية، وقدرة كبيرة على الإبداع من خلال المواقف والشخصيات المقنعة، ليكشف «القارئ/ المشاهد» أبعاداً جديدة في الكلمات واللون والشكل والحركة.

ويعرض لنا الكتاب قصة (جوزيليتو) الفرنسية، وتحكي عن طفل إسباني يحل في حجرة دراسة بين أطفال فرنسيين.. كيف يتكيف معهم، وكيف يتقبلهم ويتقبلونه.. إن ذلك يتم من لوحات رسم كانت لغة رائعة في التخاطب والتفاهم.

والكتاب يقدم ست قصص

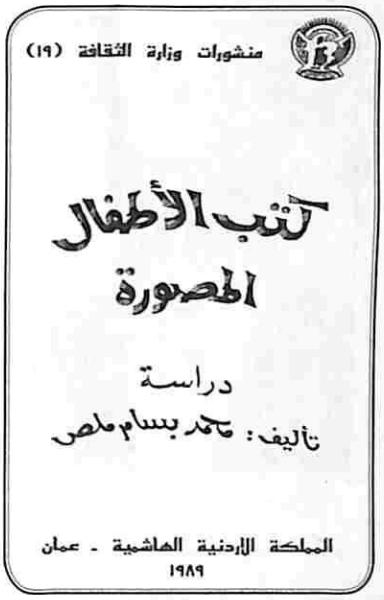

فرنسية أخرى، لابد فيها من قراءة الرسوم. إلى جانب قراءة النصوص، إذ لا غنى لواحد عن الآخر، لا الكلمات تكفي، ولا الرسوم قادرة على التعبير وحدها عن العمل المتكامل.

ويمضي بنا الكتاب إلى قصص أربع بالإنجليزية.. كلها كتب مصورة.. الأولى رؤية جديدة لقصة ذات الرداء الأحمر، بلمسات تخفف من شعور الخوف لدى القارئ، مع أن الخوف هو الأساس في القصة، والهدف، والمرمى.. إنه يحول القصة بالرسوم لعمل مرح.

أما «مساء الخير أيها البوم» فهي تتحدث عن بومة حاولت أن تنام على فرع شجرة وقت النهار، إلا أن تسعة من الطيور تحاول أن تمنعها ومعها النحل، والسنجاب.. مركزة على الأصوات التي تحدثها لتحول بين البومة وبين النوم.. ما أطرفها!

والكتاب لا يكتفي هنا بتلخيص النص إذ إن ذلك لا يجدي مع الكتب المصورة، لهذا يضطر إلى وصف اللوحات المصاحبة، مشيراً إلى كتب عربية حاولت بأسلوب قصصي تقديم المعلومة، مؤلفوها: شفيق مهدي، ومالك المطلبي. وشريف الرأس.

أما سفينة نوح الفضائية فتحاول الحيوانات والطيور خلالها أن تهرب من الطبيعة التي لوثها الإنسان.. فما كان منها إلا أن غادرت الأرض إلى الفضاء، ولخلل فني تضطر للعودة إليها مخترقة حاجز الزمن، لتعيش في زمن مضى قبل مئات السنين.

أما القصة الألمانية، فهي تعرض لفأر وقع في مصيدة، وراح يحاول الإفلات ، وذلك بقرض أجزاء من الورق .. وإذا بذلك يحدث ثغرات نرى من خلالها ما خلفها.. وعندما ينتهي الفأر من قرض كل الورقة يتحرر من وجوده بالكلمات، الكتاب بدون كلمات، فهو هنا صالح لسن ما قبل المدرسة.. وفي تقديرنا إنه لا يدخل في نطاق الكتب المصورة مع أنه صالح للقراءة للجميع، إذ لا تحول اللغة بينه وبين القارئ.. إن السيناريو يكتفي بالصور دون الكلمات.

ويقدم لنا الكتاب بعد ذلك قائمة للكتب العربية المصورة.. قد نتفق

☆ الاهتمام بكتب الأطفال وأدبهم وثقافتهم لدينا اهتمام صوري ومظهري..و«كتب الأطفال المصورة» يستحق الابتهاج بصدوره..

معه في أنها مصورة أو نختلف.. لكنك تحترم الجهد الذي بذل في إعدادها حتى وإن ضمت الكثير من الكتب المرسومة، لا المصورة.

إن الغلاف الأخير لكتاب «كتب الأطفال المصورة» الدراسة التي كتبها محمد بسام ملص يشير إلى أن القصص المختارة للعرض والتحليل تمثل اتجاهات متفردة في مجالها ينبغي التعرف عليها، ودراستها بعناية.. وفي تقديره أن الكتاب أول دراسة من نوعها في أدب الأطفال باللغة العربية تعرض لنصوص أجنبية.. فهي تحلل النصوص والرسوم، وتبني العلاقة الوثيقة بينهما، لتلفت نظر العاملين في هذا المجال إلى نوعية هذه الكتب، ولعل ذلك هو سر حماستنا للكتاب.. إنه ينبه إلى مجال لم يقتحمه الكثيرون.. والذين اقتحموه ليسوا على بينة منه، ولا دراية ولا خبرة لهم بأمره، بل هم يخلطون خلطاً كاملاً ما بين الكتب المصورة والمرسومة.. ومثل هذا الكتاب الذي يقدم النظرية والتطبيق للنماذج العالمية إضافة مهمة للقارئ العربي، وتحتاج للمزيد لتوضيح أمور الكتب المصورة التي تجتذب إليها أعداداً كبيرة من القراء من أعمار مختلفة، وهي تشحذ ذكاء القارئ للنص والصورة، ويكفي أن أشير إلى أن سبعة الآف كتاب مصور قد صدر خلال عشر السنوات الأخيرة، الكثير منها ضالع مع الصهيونية، هاتف لها.. ولعل أشهر رسامي هذه الكتب، وهو الذي أشار إليه الكتاب، ونعني به موريس صنداك، صاحب كتاب (حيث توجد الأشياء المتوحشة).. أن له عشرات الكتب المتعصبة ضدنا، المتعصبة في صفهم.. وهناك دراسة لهذا الكتاب في واحدة من ندوات مركز تنمية الكتاب في مصر، كشفت عنصرية هذا الكاتب الرسام الذي هو في طليعة منتجي هذا اللون من الكتب.. وله عنها كتاب مهم.. عنوانه: عصر الكتب المصورة..

❖ النشاط التمثيلي للطفل:

صدر هذا الكتاب في بغداد، ضمن سلسلة «الموسوعة الصغيرة» عام ١٩٨٦.. وهو يعني بذلك الدراما الإبداعية للطفل.. وهو يريد منا أن نستفيد منها «طالما أن أي اختراع أو اكتشاف أو إبداع لكل الإنسانية» وقد وردت في الكتاب أمثلة تطبيقية من تجارب الكاتب، «الذي مارس ومازال: مسرح الأطفال التمثيلي مشرفا ومخرجا ومؤلفا وناقدا».

وفي البداية يحدثنا عن لعب الأطفال، ويشير إلى قول الغزالي «منع الطفل من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش». ويرى أنه خلال لعب الطفل تظهر لحظات تشخيص واضحة، كأن يمثل الطفل دور الأب أو... أو... بالإضافة إلى ظهور مواقف عاطفية، كأن يعنف طفلة دميتها؛ لأنها لم تتناول طعامها: وهذه اللحظات فيما يرى هي النشاط التمثيلي.

وفي محاولته التمييز بين مسرح الطفل والنشاط التمثيلي للأطفال يؤكد أن مسرح الطفل عبارة عن مسرحيات يكتبها مؤلفون، ويؤديها ممثلون - كباراً وأطفالاً - لجمهور من الأطفال.. أما النشاط التمثيلي فإن الأطفال بتوجيه من المشرف يبدعون المشاهد والحوار والحركة مرتجلين ذلك كله..

ومسرح الأطفال نشأ في مصر في العشرينيات، وقد كتب له الشاعر الكبير محمد الهراوي خمس مسرحيات - من بينها مسرحيتان شعريتان.

أما الدراما الإبداعية فقد مارسها أعضاء جمعية ثقافة الأطفال في العديد من التجمعات، وبالذات في المعسكرات الصيفية في أواخر الستينيات.. وقد أعددت شخصيا نشر المسرحيات الخمس المشار إليها في كتاب تحت عنوان «الهراوي رائد مسرح الطفل العربي» - دار الكتاب المصري اللبناني - القاهرة..

ويشرح لنا الأستاذ بسام أهمية النشاط التمثيلي للأطفال خلال مراحل نموهم المختلفة، وهم فيها قبل الخامسة يميلون إلى اللعب التصوري - أو الإيهامي - الذي يفضي بهم إلى اللعب الشخصي.. لفترة لا تطول، بعدها ينعطفون إلى اللعب الجماعي أو التعاوني، وفيه تأخذ الأصوات حيزاً أكبر وأهم.

في المرحلة الأولى يقود الصغير حافلة، بها عدد من الركاب، ويتوقف عند المحطات.

في المرحلة الثانية يكون هو وزملاؤه معرضين لرياح عاصفة وأمطار، يحاولون أداء دورها، أو إتقاءها، وفي النهاية يظهر قوس قزح.

والمشرف خلال ذلك كله يعينهم على المشاركة بالحركة وإطلاق الأصوات.. لكن ماذا لو أننا في غابة؟.. هناك أشجار، وحطابون، وحيوانات مفترسة وما إلى ذلك كالصيادين، وكل يختار لنفسه الدور الذي يقوم به.. ويبتكر حركاته، وتصرفاته، ويبدع ما يؤديه ويقوم به.. والمشرف هنا ليس مخرجاً مسرحياً يُعد لعرض، بل هو مجرد محرك ومعين ومساعد دون تدخل كبير من جانبه، بل لابد أن يدع للأطفال قدراً كبيراً من الحرية لكي يمارسوا إبداعاتهم.. فالنشاط التمثيلي أصلاً وجد من أجل رسالة تربوية وثقافية يؤديها أصحابها تجاه المشاركين فيه من الصغار، ومن الممكن ألا يكون هناك جمهور يشاهد ويتفرج، فالجميع في هذه الحالة ممثلون ومتفرجون معاً..

وتأتي بعد ذلك مرحلة ما بين الثامنة والثانية عشرة.. وأصحابها يحبون القصص، تروى لهم، ويحاولون مع المشرف تحديد الشخصيات فيها، وما تتصف به، ومن ثم يختار كل طفل الشخصية التي يحس أنه قادر على أن يؤدي دورها، ارتجالاً.. وحواراً.. ولا دخل هنا قط للكتابة خلال كل ذلك: ما من مسرحية مكتوبة، بل ولا القصة ذاتها، لكن هذا كله يتم مشافهة.. وهناك أمثلة ضربها الكاتب.

ونضيف تجربة مررنا بها، إذ حكينا للأطفال قصة ثياب الأمبراطور للكتاب هانز أندرسون، ورفض الأطفال أن يكون النساجان مجرد محتالين ونصابين، بل رأوا أن يكونا من الثوار ليكشفا الأمبراطور الذي لا هم له غير الثياب، وهو غافل عن العمل من أجل شعبه.. (كان ذلك مستوحى بالطبع من الجو السياسي السائد يومئذ في أواخر الستينيات.. وما زالت ترن في أذني صيحة الطفل الذي راح يردد في حماسة: الأمبراطور عريان..) وهكذا يتاح للأطفال أن يبتكروا من المواقف ما يرغبون فيه، ومن الحوار ما يستطيعون التعبير به، ومن الحركة ما يجدون فيها إضافة.. هم يطلقون ما بداخلهم من بخار - وأفكار - حبيسة، لتصفو نفوسهم، وتهدأ، وينعمون بنوع من الرضا النفسي، ويكتشفون ما لديهم من قدرات ابتكارية، وإبداعية، ولو أنهم تدربوا على ذلك لكان لنا من بينهم مكتشفون ومخترعون..

ويعرض المؤلف بعد ذلك للدور المهم الذي يلعبه ذلك النشاط في مجال اللغة وإثرائها، فالاعتماد على الحوار يدفع الأطفال إلى محاولة دائبة للتعبير، واختيار الكلمات بدقة، ونطقها بشكل سليم، ومحاولة وصف مشاعرهم بعبارات صحيحة.. فضلاً عن أن ذلك يدربهم على الاستماع والتحدث، بل والقراءة والكتابة، وهم أحياناً يختارون لهذا النشاط محوراً، يعينهم على المزيد من التعرف على أبعاده، وقد ضرب مثلاً بأن مجموعة توقفت عند إفريقيا، وفي نهاية النشاط كانوا قد عرفوا الكثير عنها وعن حكاياتها الشعبية وفنونها.. كما يستخدم هذا النشاط في علاج كثير من الصفات السلبية كالخجل، والخوف، والإحباط، وما إلى ذلك من أمور لو أنها بقيت لدى أصحابها لشكلت لهم مصاعب قد تكون كبيرة، وعقبات قد تعوق تقدمهم.. ويعرض في ختام دراسته للقيم التي يحققها ذلك النشاط في نقاط تشمل: الإبداع، والحساسية، وتدفق الأفكار، والمرونة، والاستقرار العاطفي، والتعاون الاجتماعي، والمواقف الأخلاقية، والتوازن الجسدي، ومهارة الاتصال.

ويقدم لنا في النهاية مئة واثنين وعشرين هامشاً، وثمانية وثلاثين مرجعاً باللغة الإنجليزية بجانب قليل من المقالات العربية.. الأمر الذي يؤكد ماذهبنا إليه من أن الرجل عاكف في محراب الطفل وثقافته وأدبه وفنه، وأنك سواء اتفقت معه فيما يذهب إليه أو اختلفت إلا أنك لا تملك غير

☆ يقول الغزالي : منح الطفل من اللعب وإرهاقه دائما بالتعلم يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش..

الاحترام العميق له، وللجهد المضني الذي يبذله، وكم تمنينا أن يسهب في عرض تجاربه أكثر مما يعتمد على المراجع التي ينقل عنها في أمانة تؤكد خلقه العملي الفياض.

❖ النهضة الأوربية في أدب الأطفال:

هذا الكتاب صدر في الرياض (١٤١٣هـ/١٩٩٢م) عن إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود، على أنه «دراسة نقدية».. وعنوان الكتاب لا يدل دلالة كافية على مضمونه، إذ هو يعرض في استفاضة للجهود العربية في مجال العلم، والتي

كانت وراء النهضة الأوروبية، إذ استشاط الكاتب غيظاً من محاولات الأوروبيين إغفال هذه الجهود عن عمد وقصد، وأغضبه كثيراً أن بعض الكتاب العرب يجارونهم، ويسايرونهم في هذا الاتجاه، ويكتبون في أدبهم للأطفال أشياء من هذا القبيل.. وبالذات كتاب يحمل عنوان «النهضة الأوربية»، ومن هنا قد يصرفنا عنوان الكتاب عن مضمونه الحقيقي.

ونحن في هذا الكتاب أمام اثنين وستين مصدراً وأربعين مرجعاً، وخمسة عشر مقالاً باللغة العربية، بجانب ستة وثلاثين مرجعاً باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وخمسة عشر مقالاً بالإنجليزية، الأمر الذي يؤكد على أن الرجل قد أضنى نفسه بحثاً وتنقيباً عن إنجازات العرب والمسلمين في مجال العلوم التطبيقية والتكنولوجيا، وفي مجالات أخرى.. إننا مع قرابة مائة وثمانين صفحة من القطع الكبير للرد على كتاب للأطفال مغمور.. لكن الهدف الأساسي هو التركيز على فكرة أن النهضة الأوروبية ما كانت لتقوم، لولا ما قدمته الحضارة العربية من إسهامات جليلة، والسؤال الذي يطرح نفسه:

- هل كتاب «النهضة الأوروبية» هو «أدب الأطفال العرب»؟

نعرف أن كثيرين تشيعوا للحضارة الغربية، وانبهروا بها، فمنذ حدثت لنا صدمة الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت، وبعد أن سافر طلاب البعثات إلى أوروبا، وعادوا وهم ينعون على بلادنا تخلفها.. بل إن واحداً من بينهم هو أستاذنا زكي نجيب محمود وضع كتاباً يحمل عنوان: «شروق من الغرب».. الأمر الذي هو مخالف حتى للطبيعة.. ومنذ عاد رفاعة الطهطاوي من باريس، وهناك من تنبه إلى أن هذه الحضارة يجب الأخذ ببعض أسبابها وجوانبها من أجل أن نتقدم، وليس ذلك عيباً، فقد أخذوا عنا الكثير.. وقد تراجع أغلب هؤلاء المتشيعين للحضارة الغربية وتنبهوا إلى جذورهم، بل أعلنوا عن ذلك في شجاعة، وغاصوا في أعماق تراثنا يستخرجون لنا منه روائع خالدة، في كل فرع من فروع العلم والمعرفة بل إن العالم كله أصبح ينظر إلى الحضارة العربية نظرة مخالفة، وصارت المؤلفات تظهر لتؤكد الدور الرائع للخوارزمي في الجبر والرياضيات، والرازي في الطب، وجابر بن حيان في الكيمياء..و....بل لقد انبهروا كثيراً بابن سينا وابن رشد، فأقاموا لهما التماثيل، وأصدروا عنهما الكتب، والدراسات والأبحاث.. ويظهر كتاب سجريد هونكه الألمانية (شمس الله تسطع على الغرب) ليكشف أن الحضارة العربية في كافة المجالات كانت هي الأساس الذي انطلقت منه النهضة الأوروبية.. بل ارتكز نيوتن نفسه على أبحاث الحسن بن الهيثم في علم الضوء مثلاً، إذ هو الذي صحح نظريات اليونان عنه، ولم يعد خافياً على أحد فضل محاولات أوروبا الاعتماد على الحضارة اليونانية في بناء نهضتها، حتى في مجال الفلسفة، التي كانت نصيبنا منها قليلاً، لأسباب معروفة، لكن عقلانية ابن رشد معترف بها، معتمد عليها.

وبودي أن أضرب مثلاً للتعامل مع هذا الموضوع في كتاب ظهر في الثمانينات يحمل عنوان «اللقاء الفريد» عقدت فيه مقابلات خيالية بين الحسن بن الهيثم ونيوتن، وعباس بن فرناس والأخوين رايت ولندنبرج، وابن النفيس ووليم هاريفي، وابن ماجد وفاسكو داجاما (حدث هذا اللقاء فعلاً)، وبين رفيدة بنت سعيد وفلورنس نيتنجيل... إلخ، وهي عشرة لقاءات تركز كلها على أن العرب قد سبقوا الغرب في كافة المجالات، وأن الغرب قد استفاد منا، وسبقنا، وبين العرب والغرب نقطة واحدة، هي أن نلهث لنلحق بهم.. والسبب في ذلك واضح، إذ العلم من حق الإنسان أينما كان، وحيثما كان.. وهذا الكتاب ظهر في أكثر من طبعة، وترجم إلى اللغة الإنجليزية وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في أدب الأطفال في مصر عام ١٩٨١، ومازالت طبعاته تتوالى، لنفس الهدف الذي سعى إليه الأستاذ محمد بسام ملص.. خاصة أن هذا التفوق العلمي الذي يجب أن يعرفه أطفالنا كإنجاز عربي، قد صار جزءاً لايتجزأ من تاريخ الإنسانية، لكن عليهم أن يعرفوا أنه «تاريخ» يجدر بهم ألا يعيشوا عالة عليه، بل يجدر بهم أن يواكبوا العالم، خاصة أننا نعيش عصر انفجار العلم والمعرفة، إلى حد أن طالب كلية العلوم في البلاد المتقدمة لا يدرس من العلوم إلا ما عرفه العالم في خلال سنوات قليلة، لا تتعدى عمر هذا الطالب.. بل نحن لا نرجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)، لأن هناك تاريخاً جديداً للإنسانية بدأ بصعود (جاجارين) الروسي إلى الفضاء، وأمريكا نفسها تؤرخ بهذا التاريخ، لأنه كان يعني تفوق السوفييت عليها، لذلك ألهبت ظهور علمائها وصولاً إلى التفوق المذهل الحادث اليوم، وأبرز مظاهره «الكمبيوتر»

☆ كتاب «النهضة الأوربية في أدب الأطفال» يهدف إلى التركيز على أن النهضة الأوربية في أدب الأطفال ما كانت لتقوم لولا ما قدمته الحضارة العربية.

وأجياله المتعاقبة المتسارعة إلى درجة رهيبة..

نعم، نحن مع الأستاذ بسام في أن العرب سبقوا الدنيا إلى الورق والبوصلة، بل سبقوا كولمبس نفسه - مما يؤكده سعيد العريان في كتابه - للأطفال - «العرب.. لا كروستوفر كولمبس» وهي أمور يتحتم علينا أن نقولها لأبنائنا، على ألا نقف عندها.

وهناك نموذج يجدر بي أن أشير إليه هو عن «المسواك» - فقد نصحنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) به، وتلقف ذلك صيدلي عربي مسلم، فاستخرج منه مادة صنع منها، معجوناً للأسنان، لقي رواجاً كبيراً.. إنها قصة واقعية، نشرتها في أكثر من مكان.. تدليلاً على أن العودة للجذور لابد منها، فالشجرة التي لا تعمق في تربتها تقتلها الرياح.

وبعد...

إن الرجل يقع على «الفكرة» الجديدة، الجيدة، ويبذل جهداً خارقاً في دراستها، وتمحيصها وتقديمها في ثوب أنيق وبراق، لأنه يريد أن يقيم جسراً لأبنائنا مع تلك المعطيات العصرية، فليس هناك في دنيانا انغلاق على الذات، بل لابد لنا أن ننفتح على العالم وعلى العصر.. هو يريد لنا أن نستثمر الكتب المصورة - ولا نكتفي بالكتب المرسومة التي يقف الرسم فيها عند حد التزيين والتجميل، وجذب القارئ للكتاب، لكنه يريد أن تكون «الصور» ثقافة للعينين، كما أن النص الأدبي ثقافة للعقل والوجدان.. وهو يرغب

أن نستفيد من الدراما الإبداعية، أو ما سماه النشاط التمثيلي للأطفال - والتعبير الأول أصح موضوعياً، والثاني أفضل لغوياً - إذ نستهدف من هذا النشاط تدريب الطفل على تذوق الدراما منذ نعومة أظفاره.. من خلال الممارسة ودون الاكتفاء بمشاهدة الأعمال المسرحية - وإن كان ذلك يمثل ضرورة حتمية، ويأتي الكتاب الثالث الذي يرفض فيه التغريب، ويمد جذور النهضة الأوروبية إلى تربة حضارتنا العربية الإسلامية، من أجل أن يؤكد على أنها قامت على أساسها، وتغذت عليها، حتى لو حاولوا أن ينكروا ذلك، وحتى لو أخطأ البعض عندنا حين يقدمون هذه النهضة على أساس أنها امتداد لحضارة اليونان والرومان وهو تعصب نعرفه عن يقين، إذ رأينا بعض كتب التاريخ التي يدرسها أطفالهم تبدأ بهذا التاريخ الأوروبي، وتنعطف قليلاً للوراء لتقول: إنه كانت هناك بعض حضارات قديمة بائدة في مصر الفرعونية وفي بابل وآشور بالعراق وفي سبأ ومأرب في اليمن وفي فينيقيا بالشام.. وهم لا يعطون هذه الحضارات ماهي جديرة به من اهتمام واحترام، وبالطبع يقفزون عصورهم الوسطى بلا التفات لما قامت به دمشق، وبغداد، والقاهرة من دور حضاري رفيع، إبان الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة..

إن محمد بسام ملص يستحق من وطنه العربي لوناً من التقدير، وهو جدير بأن يلقى من أمته الإسلامية نوعاً من التكريم، إذ هو يعمل من أجل الطفولة وأدبها وثقافتها بلا إعلام أو إعلان عن جهده وشخصه الكريم.. وهذا الذي أقدمه عنه - بدون لقاء سابق - مجرد لفت للأنظار لهذا الحفيد لأجداد عظام، سار على نهجهم وعمل بأسلوبهم، في صمت وهدوء العلماء الحقيقيين.. وخاصة، وما أظن أن أحداً قد درس أعماله كاملة، بل إن أعماله هذه قد وصلت إلى يدي عبر العواصم الثلاث، ومن المؤكد أن له الكثير مما لم يصل إليّ..

له تحية إجلال واحترام وتقدير وحب... ■